

من الأدب الفارسي القديم

النظرات الأخلاقية في شاهنامة الفردوسي

د. محمد علوي مقدم

الفردوسي شاعر ملحمي لا يضاھيه أحد ، وشاهنامته ذات موضوعات مختلفة . فقد تحدث في ملحمته ، بالإضافة الى القتال ، عن النصائح والمواعظ ، وتناول موضوعات متعددة بعنقريّة فذة . وليس عمله على وتيرة واحدة ولكنه متنوع إلا إن وزن شعره وشكله واحد (١) .

موضوع الشاهنامة ، هو تاريخ إيران القديم منذ بداية الحضارة الإيرانية القديمة الى سقوطها ، وهذه الفترة على طولها تنقسم الى ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى - العهد الأسطوري الذي بدأ من حكم كيومرث وهو شنج وطهمورث وجمشيد والضحّاك ، وتنتهي بظهور فريدون وجلوسه على العرش . وليست لهذه المرحلة من الشاهنامة قيمة ملحمية ، بل هي على العكس ، تغلب عليها صبغة الأساطير .

المرحلة الثانية - العهد الملحمي أو البطولي الذي يبدأ من قيام كاوه الحدّاد وإجلّاسه فريدون على العرش وتقسيم الأخير لمملكته بين أبنائه الثلاثة :

(١) الشاهنامة كلها من البحر المتقارب وفي شكل المثنوي .

سلم وتور وايرج ، وتنتهي بقتل رستم وحكم بهمن بن اسفنديار . وفي هذا الجزء نفسه من الشاهنامه تتجلى كل مميزات الملحمة . فالملحمة شعر يصف الأعمال البطولية والخارقة للعادة التي توجب الفخر ، كما يصف أمجاد قوم أو أمة ، وفي بعض الأحيان أمجاد فرد . وفي الشعر الملحمي تذكر الأعمال البطولية في صورة قصة أو قصص .

ومن الممكن أن تكون المنظومات الحماسية ذات صبغة قومية تتحدث عن حروب أمة وبطولاتها وتضحياتها ، ومن خلال ذلك تتحدث عن حضارتها وظواهرها الفكرية والثقافية خلال العصور . ومن الممكن أن تكون المنظومة الحماسية تاريخية ، نشأت نتيجة للإهتمام بالحقائق التاريخية وامتزاج الاحداث التاريخية بالموضوعات القصصية ، ومثالها « ظفر نامه » (كتاب الظفر أو النصر) لحمد الله المستوفي القزويني وشهنشاه نامه (كتاب الاميراطور) لملك الشعراء صبا . ومن الممكن أحيانا أن تكون للمنظومات الملحمية ، صبغة دينية ، تظلمها مؤلفوها نتيجة لعقيدة دينية حادة ، مثل منظومة خاوران نامه (الكتاب المشرقي) وحلمة حيدري (الكثر الحيدري) لابن حسام .

المرحلة الثالثة - من مراحل الشاهنامه ، هي المرحلة التاريخية ، التي يقل فيها - الى حد ما - أسلوب الفردوسي عظمة وتخف حدة لهجته . وفي هذه المرحلة يلقب بهمن بن اسفنديار بلقب اردشير ويوصف بـ (دراز دست) أي واسع الباع .

وفي هذه المرحلة نفسها لم يذكر الفردوسي خلفاء الاسكندر ، مع أنه ذكر الاسكندر نفسه ، ذلك لأن المصادر التي كانت بين يديه ، التزمت الصمت عند

هذا الموضوع ، ولأنه لم يكن يعرف عن السلوقيين شيئاً قط . ولم يكن يعرف شيئاً عن فترة حكم الاشكانيين التي بلغت خمسة وسبعين وأربعمائة عاماً ، اللهم إلا الاسم . ونتيجة لذلك ظم الفردوسي ثمانية عشر بيتاً فقط عن هذه الأسرة . ويعترف بذلك صراحة فيقول : (١)

« لم أسمع عنهم إلا الاسم ، ولم أقرأ عنهم في كتاب الملوك »

إن معظم نصائح الفردوسي ومواعظه وآرائه الأخلاقية ترد في هذا الجزء من الشاهنامه ، الذي تحدث فيه عن بزر جمهر الحكيم وهو في غاية البلاغة ، ولعل ابن الأثير قد أطلق على الشاهنامه لقب قرآن العجم (٢) ، نتيجة لهذا الجزء . يقول في الفرق بين النثر والشعر « إن الشاعر إذا احتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتي بيت أو ثلاثة مائة ، يستطيع بالتأكيد أن يجيد في شعره ، إلا أن بعض هذه الأشعار ، يكون جيداً وأكثرها يكون رديئاً واهناً . وبالرغم من هذا فإن الشاهنامه تستثنى من هذا الرأي ، فكلها في غاية الفصاحة والبلاغة » (٣) .

وعند الفردوسي شيء آخر جدير بالانتباه ، هو عفة لسانه ، ففي الشاهنامه كلها لا يوجد لفظ قبيح أو عبارة مستهجنة ، إذ لم يلوث الفردوسي لسانه بالهزل والقباح . وحشما اقتضت رواية ما أن يذكر نقطة باعثة على

(١) منتخب الشاهنامه ، لمحمد علي فروغي وحبيب يغماني ، ص ٤٦٢ .

(٢) المثل السائر ٤ : ١٢ طبعة دار النهضة المصرية .

(٣) المصدر السابق ٤ : ١١

الخجل كان ينقلها بالطف عبارة وأجملها ^(٤) . ففي قصة عشق زال (والد رستم) وروذابه (والدة رستم) عندما يريد أن يقص كيف أن روذابه أرخت ضفائرها من أعلى القصر الى أسفله ، حتى يتساق زال عليها ، يقول ^(٥) :

« خذ بطرف ضفيري من ناحيتك ، فمن أجل مثلك ينبغي أن تكون هكذا دائماً

ومن أجل ذلك أطلت هذا الشعر ، حتى يكون معيناً للجيب »

أين نستطيع أن نجد شيئاً لهذا المضمون البديع ؟ في الواقع ان الفردوسي ظلم غزلاً في قالب المثوي ، غزلاً يمكن من حيث رفته وسلاسة أفكاره وجمال عباراته وتناسب ألفاظه أن يماثل غزليات العصور التالية .

وللفردوسي أيضاً مراثٍ حسنة ، لكن ينبغي ألا نتوقع أن يترك الفردوسي الحديث عن البطولة عند قلمه للمراثي . فعلى سبيل المثال تعد قصة « ايرج » من المراثي الحسنة في اللغة الفارسية . وعلى سبيل المثال أيضاً ظلم الفردوسي بعد ذكره لمقتل سهراب واسفنديار على يد رسته ، مراثي رائعة . فعندما وصل خبر موت سهراب الى أمه ، هكذا وصف الفردوسي حُداد والدته عليه ^(٦) :

« صرخت وطارت شعاعاً وشقت جيبها نائحة على ذلك الصبي الغصن

(٤) لمعلومات أكثر ، انظر : مقالة الاستاذ فروغي في « هزاره فردوسي » ، ص ٨

(٥) منتخب الشاهنامه ، ص ٤٥ .

(٦) منتخب الشاهنامه ، ص ١٥٦ .

وانطلقت صارخة معولة نائحة ، وأخذت تفقد وعيها بين لحظة وأخرى «
وللفردوسي ، فضلاً عن هذا ، مريئة مثيرة للحنن قلمها في موت ابنه ،
وهي تدل في الوقت نفسه ، على تحمل الشاعر وشدة جلده وقدرته الشعرية ،
يقول :

« تجاوز عمري الخامسة والستين ، وليس من المستحب أن أطمع بعد في مال
ربما آخذ نصيباً من مواظلي ، وأفكر في موت ولدي
كان الدور ، دوري وذبح ذلك الشاب ، ومن ألمي عليه صرت كأنني جسد
بلا روح »

لا تقتصر شاهنامة الفردوسي على الأشعار الحرة فحسب ، بل عندما
يقتل بطل أو يموت شخص عظيم يأخذ في نصيح الآخرين من البشر الغافلين عن
نهيائهم ، المتكالبين على الدنيا ، العارفين في الآثم وييدي غدر الأيام ويكشف
عن وجه الموت ويطلب من عبّاد الدنيا وطلقاتها أن يعتبروا بما حدث وكأنه
يقول : أيها الظلمة ! لا تظلموا واعلموا أنكم أيضاً ميتون يوماً ما . يقول في
موضع آخر (٧) :

« أين أولئك الفرسان والأبطال الذين كانت روح الدنيا بهم سعيدة
وأين حسان الدنيا اللائي ، لا أرى منهن أثراً فيها
أين رؤوس الملوك وتيجانهم ، أولئك الذين لا أرى منهم أثراً في الدنيا »

ويقول في موضع ثالث^(٨) : في هذه الدنيا ، عاش متوجون ، وفي هذا العالم كان هناك علماء ، وعلى هذه الأرض تبخترت حسان ، وكلهم مضوا :

لو أن الدنيا أفشت سرها ، لأبدت مبدأها ومنتهاها

كان كنفها مليئاً بذوي التيجان ، وكان صدرها مروياً بدم الفرسان
وكان حجرها مليئاً بالعلماء ، ومفعماً بالحصان سافرات الوجوه والأبدان

وأحياناً يسأل الفردوسي نفسه بحزن زائد عن الحد : أين مضى كل أولئك الملوك ؟ وإلى أين مصير الظالمين ؟ وأولئك الحصان ربّات الدلال إلى أين اتھين ؟ إن كل هذه الأسئلة من أجل أن يعتبر القراء ، فلا يظلم أحد أحداً ، بل يجب أن تسود الرحمة وتنتشر المحبة بين الجميع ، فيقول^(٩) :

« أين هامات الملوك وتجانهم ؟ ، وأين أولئك العظماء والسادة الأمجاد ؟

أين أولئك الحكماء والعلماء ؟ وأين من تحمّلوا المشاق من القراء ؟

أين أولئك الحصان ذوات الدلال والحياء ؟ وأين الحديث اللّين والصوت

الناعم ؟

والفردوسي في منظومته ، يخبر القارئ ، وينبهه أن العمل السيء لا يفضي إلا إلى النتيجة السيئة ، وأن الطريق المعوج لا يوصل الإنسان إلى الهدف بل

(٨) منتخب الشاهنامه ٣٧٣ .

(٩) منتخب الشاهنامه ١٩١ .

يضلّه ، وإذا قدم الانسان الشر لايجني إلا الشر ، يقول :
« لاتسيء ففي النهاية يساء اليك ، وفي الدنيا يسوء اسم الإنسان من
فعله السوء »

ويقول :
« لا يأخذ بيدك إلا الخير ، ذلك إذا استمعت جيداً الى كلام الحكيم »
ويقول :
« إذا زرعت السوء فإنك لن تحصد إلا السوء ، ولن تنام ليلة في الدنيا
سعيداً »

وأحياناً ينصح الفردوسي الناس فيقول : إذا فعل إنسان الشر لا محالة
سوف يصاب بالأذى ، ويقول : (١٠)
« ينبغي ألا يعاش في الدنيا بالشر ، لأن المسيء بلا شك واقع في الأذى »
وأحياناً يعظ الملوك فيقول :

« إذا كان ديدنك اجراء العدل ، فإن منزلتك أيها الملك في ازدياد »
ويقول في موضع آخر :
إذا زرع الملك شجرة ظلما ، فإن الملك والإقبال يُدْبران عنه
ويعظ الفردوسي بلسان رجل عالم مستنير القلب ، الحكام ، ويقول :

ينبغي ألا يسمى الحكام الأقوياء في إيذاء المحكومين ، فإن عاقبة الجميع الموت ، حيث يصير فراشهم التراب ومتكأهم اللبـن . وما أفضل أن يحسن الإنسان عمله ، يقول : (١١)

« إذا كنت تريد أن تخلص من العناء ، وأن يكون لك كنز ممتلئ بلا مشقة أو تعب ، فاختر عدم إيذاء من هم دونك ، إذا أردت أن تمدح بالعدل فإن فراش الجميع التراب واللبـن ، وما أسعد ذلك الذي لم يفرس إلا بذور الخير »

ويمدح الفردوسي في موضع آخر ، الحاكم العادل ويقول من الممكن أن يكون الحاكم العادل بلا حماية وجند ، ولكن العدل والإستقامة يكونان حارسيه وفي قلوب الناس ملجأه ، يقول : (١٢)

« أن يكن العادل بلا جند ، فحسبه الإستقامة حارساً »

ويعتقد الفردوسي أنه ينبغي أن يتقاوم الظلم ويجتث الظالم من جذوره ، يقول : (١٣)

« اشق الظالم حياً ، اجعل قدميه الى أعلى ورأسه الى أسفل »

ويرى أن الاجتهاد والجهد في كل مراحل الحياة المادية والمعنوية ، ضروريان ، لتقدم البشر ورفي المجتمع الانساني ، يقول :

(١١) منتخب الشاهنامه ٤٧٦ .

(١٢) و (١٣) المصدر السابق ٥٢٧ .

اتبه لئلا تُمضي الحياة في الشر ، ولنجاهد في أن نمد يد الخير
ينبغي أن نصير مكافحين في كل أمر ، وأن نصير مستمعين الى المعرفة
ويقول في موضع آخر : اذا لم يكافح البشر في الحياة فأنهم لن يصلوا
الى التوفيق ولن يحققوا آمالهم ورغباتهم :

« لا تتوان أبداً في عملك ، فإن الله شاهد عليك في الدنيا
وعندما لا يكون القوي جلدأ ، فانه لا يحصل على رغباته قط »
ويرى أيضاً أن الوهن والكسل هما سبب مرض الجسد ، ومرض الجسد
سبب وهن الفكر :

« هكذا قال الحكيم ، ذات يوم :
انه لا يتأتى من الرجل الواهن إلا الرأي الواهن
وفي الوقت الذي تهن فيه في عملك ، فإنك تُلقي بالآراء جزافا »
ويرى الفردوسي : ان الجهد والجدلازمان أيضاً لجمع المال ، فيقول : (١٤)
« ان الكنوز أيها العاقل كامنة في التعب ، ولا يجد الكنز من لم يتحمل المشاق
فخل عنك حب الراحة والكسل ، وأسعد جسدك بالكفاح والجهد
ففي الدنيا لا يوجد ثمن بلا جهد ، وليس للكسول نصيب من الكنز »

وفي موضع آخر يذم الفردوسي الكسل والبطالة ويعتقد أن الكسل من مثالب البشر ، وأن الانسان يستطيع بالهمة العالية والجهد والإرادة القوية أن يتخلص من مرض الكسل . ويرى أنه لكي تنجلي الظلمات عن الطبع والفكر ، ينبغي أن يكافح الانسان ، لأن الانسان هو الذي يملك علاجاً للكسل والبطالة ، وأن الجهد والكفاح هما العلاج الوحيد للأمراض الانسانية (١٥) .

ويعتقد الفردوسي في فضيلة السعي والكفاح إلى حد أنه يرى أن هذه الفضيلة ذات أثر كبير حتى في الحصول على الجنة الخالدة ، يقول :

« فلنبحث عن الجنة الرغدة عن طريق السعي ، فما أسعد ذلك الذي لم يفرس إلا بذور الخير »

إن ما يعتقده البعض بأن الفردوسي شاعر ملحمي وأن ما أفجزه في الشاهنامة كله ذو جانب ملحمي ، ليس صحيحاً ، فشاهنامة الفردوسي تحتوي أيضاً على موضوعات أخلاقية ، والفردوسي في ملحمة يعرف القارئ ببشاعة الكذب وبمزايا الصدق ، ولا ينفك يتحدث عن الاستقامة وأهمية الوفاء بالعهد واستشارة العلماء ، ويوضح قبح الغضب والحسد والعواقب السيئة للحرص والطمع والتسرع . ويمدح فضائل القناعة والأخذ بيد الفقراء والمساكين والعفو عما سلف ويقول للبشر :

« ابتعدوا عن الحرب والمخاصمة وسفك الدماء واحذروا الفرور وحب

(١٥) لمعلومات أكثر ، انظر : مقالة الاستاذ رشيد ياسمي في « هزارة

فردوسي » ص ١٧٥ وص ٧٦ .

الذات والعجب» • ويشجع الناس على تحصيل العلم والمعرفة ، ويرى أن تحصيل العلم شيء ضروري :

« ليس هناك بدّ من التعلم ، فهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ »
ويوصي الفردوسي الناس بطلب المعرفة وكسب العلم ويعتقد أن المعرفة هي أساس زينة قلب الانسان وروحه ، يقول : (١٦)

« زين القلب بالمعرفة ، فإن القيمة للمعرفة ، وعندما تعرف هذا تفذه »
ويتحدث صراحة في موضع آخر بأن المعرفة هي أساس غنى نفس الانسان وروحه ، يقول : (١٧)

« اجعل النفس غنية بالمعرفة ، وبها اجعل العقل متوج الرأس »
ويعتبر الفردوسي المعرفة أساس التربية الروحية وسبب رقي البشر وسموهم ، يقول : (١٨)
« اذا لم يكن لدى روحك قدر من المعرفة ، فإن أفضل زينة لك هي الصمت »

ويقول الفردوسي في موضع آخر (منتخب الشاهنامه ، ص ٥١٥) :

(١٦) منتخب الشاهنامه ٤٧٩ .

(١٧) المصدر السابق ٤٩٨ .

(١٨) المصدر السابق ٥١١ .

« لا تبحث عن باب الاستغناء في العلم ، مهما صادفك فيه من صعاب »
 وفي الواقع يريد أن يقول : ليس البشر في غنى عن المعرفة في أي مجتمع ،
 وعليهم أن يطلبوا العلم بجهد وجهد .
 ويؤمن الفردوسي بأهمية العقل ، ومن عجب أنه ينتقل في ملحمة من
 تحميد الله إلى مدح العقل مباشرة ويقول (١٩) بعد تحميد الله تعالى :
 « باسم رب الروح والعقل ، فإنه لا يتجاوز الفكر أعلى من هذا »
 ثم يقول : (٢٠)

« ان العقل هو تاج الملوك ، وزينة العظماء
 اعلم أن العقل هو الحي الأبدى ، وأنه أس الحياة
 الذي لا يكون العقل دليلاً أمامه ، فإن قلبه يضرب من فعله بالجراح
 العقل هو عين الروح عندما تبصر النظر ، وأنت لا تعيش في الحياة سعيداً
 بلا بصر اجعل العقل ناصحاً لك على الدوام ، وإبعد به روحك عن كل مالا
 يليق »

ويرى الفردوسي أن العقل لازم للاديان أيضاً ، وأنه لا بد لتعاليمها أن
 تتفق مع العقل ، يقول : (٢١)

(١٩) المصدر السابق ، ص ١ .

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٢ .

(٢١) لمعلومات أكثر ، انظر محاضرة الدكتور رضا زاده شفق في « هزاره

فردوسي » ص ١٧٠ و ص ١٧١ .

« كل دين يكون ثابتاً راسخاً ، لابدّ أن يكون العقل له دليلاً »

ويعدّ الفردوسي الاستقامة ضرورية للبشر من أجل صفاء قلوبهم واستتارة بواطنهم ، ويعتقد أن على البشر أن يتجنبوا الإعوجاج وسوء النية ، يقول : (٢٣)

« إن كل ضياء البشر من الاستقامة ، فعليهم تجنب الاعوجاج وسوء النية »

ويذمّ الفردوسي الاغلاط في القول والغضب والفظاظة ، ويدعو الى التحدث مع الآخرين برقة ولين ، لا بطريقة يتألمون منها ، يقول : (٢٣)

تحدث بلين أيها الرجل المجرب ، ولا تلوث شفئك بالقول القبيح

ويذمّ الفردوسي التناول على مال الآخرين ويعتبره أمراً مستقبحاً ويقول : (٢٤)

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كفّ يدك عن أملاك الآخرين ، لا تكن مؤذياً وكن عابداً لله

ويقول الفردوسي للناس : تجنبوا إيذاء الآخرين ، ثم يعطيهم دروساً في الأخلاق ويقول : انه ينبغي ألاّ يؤذوا جيرانهم . وهذا هو كلام الفردوسي :

لا تسع في إيذاء الجيران ، خاصة أصحاب الشأن وذوي القدر (٢٥)

(٢٢) منتخب الشاهنامه ، ص ٥١٠

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

(٢٤ و ٢٥) المصدر السابق ، ص ٤٩٨ .

وكان الفردوسي يعتقد كثيراً في الضمير الأخلاقي أو ما اصطلح عليه بالنفس اللوامة التي تعاتب الإنسان بعد ارتكابه الذنب وتجعله حذراً من القبائح وهذه هي إحدى النصائح التي يقولها الرجل العالم (بزرجمهر) للملك الساساني (انوشروان) (٢٦) :

« والنصيحة الرابعة : اعلم أن خوف الذنب يزيد من قيد الملك ومن سجنه »

ويحذر الفردوسي البشر من التسويف وتأجيل الأعمال والتقصير في أداء الواجبات ويقول : (٢٧)

« لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد ، ولا تجلس إلى جوار عرشك من شيء »
النصيحة (٢٨)

كان الفردوسي مسلماً مؤمناً بالله الواحد القادر الذي خلق هذه الدنيا من العدم وجعلها وجوداً ، والذي يدير الفلك ويدل إلى الخيرات وحقيقة ذاته خافية عن أبصارنا بالرغم أن الموجودات مظهر له وهو أعلى من الفكر والعقل والوهم ، لانا مهما تصورنا في شأنه فإن هذا التصور وليد خيالاتنا ، يقول : (٢٨)

-
- (٢٦) المصدر السابق ، ص ٤٧٦
 - (٢٧) المصدر السابق ، ص ٤٧٨
 - (٢٨) المصدر السابق ، ص ١

« هو أعلى من الاسم والرسم والخيال ، وهو مصور السماوات العلى
لا يجد الفكر طريقاً إليه ، فهو أسمى من الاسم ومن المكان »

وللفردوسي في مقدمة الشاهنامة أشعار في مدح الصحابة ، وخلود الروح
والإيمان بيوم الحساب •

لقد كان الفردوسي عظيماً من الناحية الاخلاقية ، ومبرراً من الكدية وقلم
المدائح لنيل الصلات والمالق والنفاق الذي لا معنى له ، فكثيراً ما تحدث في
نصائحه دائماً ايذاء الخلق واقتراف الكذب • لم يكن حريصاً عابداً للدين ولم
ترد في شعره كلمة نابية مستهجنة على الاطلاق ، بل ان شعره كله مليء بالعفة
وطلاوة القول •

وعلى وجه العموم ينبغي أن نقول إنه بالرغم من أن شاهنامة الفردوسي
تعد منظومة ملحمة ، الا انها لا تخلو من الموعظة والنصيحة والاقوال الممتزجة
بالحكمة • ومعظم الكلمات والاقوال الاخلاقية في الشاهنامة ، نقلها الفردوسي
عن بزرجمهر • وبحسب مقتضى الحال كان يسوق في نهاية كل قصة أقوالاً
أخلاقية ليتخذ منها القارئ العبرة •

لقد ذكرت هذه الاقوال ، حتى يسعى البشر الى تنفيذ التعاليم الحكيمة
والاقوال السامية للفردوسي في حياتهم ويكافحوا على الدوام ليحلوا أنفسهم
بزينة علم الفردوسي وفضله ورأيه ، لأن المجتمع ، اليوم ، في حاجة الى هذا

النوع من البشر ، المثقفين ذوي الاخلاق الحميدة أكثر من أي شيء . وينبغي أن يكافح البشر حتى يتحلوا بهذا النوع من الصفات التي تحدث عنها الفردوسي ، وأن يتجاوزوا عن المهازل التي لا تليق بهم ، ويقوموا بعمل تشر به أشجار وجودهم ، وتزهر وتلقي بالظل ، حتى يقتربوا من الكمال أكثر فأكثر .



ARCHIVE
عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

مأساة الحرف العربي في المهاجر الامريكية

الياس قنصل

دراسة